ميشال فوكو بين التاريخ والفلسفة : فيلسوف "اللامألوف".

د. العربي ميلود.
جامعة مستغانم
عضو مخبر الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات. جامعة وهران2.

يحذر نتشه الفلاسفة في هكذا تكلم زرادشت قائلا " إياك أن تقف حائلا بين فكرتك وبين ما ينافيها فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين".

هذا التحذير تلقفه فوكو بكل براعة الفيلسوف، فمع تشكل الهويات التاريخية يبقى الفخ الأساسي الذي من الممكن أن يسقط فيه مشروع الإنسان يتمثل في فخ فلسفة الذات، لذا نجد فوكو أكثر تبصرا من غيره في كشف الإحراجات النظرية التي تسقط فيها فلسفة الذات، فشّخصها في كتابه "الكلمات والأشياء" باعتبارها تمثل عمق أزمة العلوم الإنسانية في سعيها بلوغ الموضوعية لتغرق في التشييئية، فليس الإنسان حسبه إلا مجرد ابتكار حديث العهد، إذ هو مجرد انعطاف في معرفتنا وسرعان ما سيختفي حالما تتخذ المعرفة شكلا آخر.

هذا هو أساس مشروع فوكو الفلسفي في كتابه الكلمات والأشياء والذي عنوانه الأصلي "أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، مشروع يصنف ضمن مشاريع فلسفة ما بعد الحداثة، مشروع حاول تجاوز بنيته الأصلية (مرحلة التاريخية) التي سيطر فيها مفهوم محوري ومركزي هو مفهوم **الإنسانوية** l'humanisme، فقد كانت العقلانيات التي عرفتها الفلسفة الغربية في عصر الحداثة باختلاف منطلقاتها الفكرية بدءا من الديكارتية إلى الكانطية وصولا إلى الهيغلية تعد شعوب العالم بتحقيق التطابق التام بين العقل والعالم. فهذا ايمانويل كانط يختم مؤلفه نحو السلام الدائم بقوله: "إن السلام الدائم الذي ينبغي أن يعقب ما سمي خطأ حتى الآن بمعاهدات الصلح (وهي في الحقيقة اتفاقيات هدنة) ليس فكرة جوفاء، إنما هو مهمة تتحقق رويدا رويدا، وتقترب من غايتها بخطى واثقة مستمرة (ولا بد من الأمل بأن الفترات الزمنية التي تستغرقها هذه الخطوات الصاعدة باتجاه السلام الدائم تتسارع أكثر فأكثر)"[1].

هذه الحركة التسارعية التي نبأنا بها كانط سرعان ما اتخذت مسلكا سلبيا، حوّل الفلسفة من مشروع يقارب المشكلات الوجودية والأزمات الإنسانية ويبحث في سبل فهمها واستيعابها بغية إيجاد حلول لها نابعة من الذات المفكرة. إلى مشروع يبحث في بعض الأسئلة الراهنة المحرجة تتعلق بالفلسفة ذاتها، والتي ما انفكت تقوض المشروع الفلسفي الذي أسسه اليونان برمته. وهو ما يؤكده ميشال فوكو في تقديمه لكتاب نتشه، -الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي حينما يقول- "أن ثمة جروحا نرجسية ثلاثة في الثقافة الغربية: الجرح الذي سببه كوبرنيك، وذلك الذي سببه داروين حين اكتشف أن الإنسان مولود من القرد والجرح الذي سببه فرويد.. حين اكتشف أن الوعي يقوم على اللاوعي"[2]، هذه الجروح الثلاث يضاف إليها ذاك الإنشطار الكبير

بين وعود الأنوار التي زالت لحساب نتائج مغايرة، فالتنوير الغربي حسب فوكو لم يحدث تنويرا كاملا بل ما فعلته الأنوار هو نقل سلطة اللامتناهي من حامل إلهي مفارق إلى حامل إنساني محايث، ولعل هذا ما نستشفه من تعريف كانط للأنوار بأنها خروج الإنسان من حالة القصور التي وضع نفسه فيها، فهو عاجز عن استعمال ذهنه دون الحاجة للآخرين، فكن شجاعا واستعمل ووظف ذهنك. شعار الأنواري هذا حطمه فوكو بمطرقة نتشوية، للتحول الفلسفة معه إلى إستراتيجية تفكيك وتقويض لمجاوزة الميتافزيقا، وهذا لأجل مقاربة الوراء، الهامش، المختفي، ما لم يقرأ بعد، فتحول كوجيتو الحضور "أنا أفكر إذن أنا موجود" إلى كوجيتو الغياب "أفكر حيث لا أوجد وأوجد حيث لا أفكر".

البحث في الغياب سيدفع بفوكو إلى توظيف أدوات ومفاهيم مستعارة ومستلهمة من البنيوية والإبستمولوجيا والتاريخ الجديد وبالأخص من جينيالوجيا نتشه، إذ يتجلى ذلك في استجابة واضحة من طرف فوكو للائحة المواضيع التي اقترح نتشه التأريخ لها وهي: الحب، الشهوة، الوعي، والقساوة، وتاريخ مقارن للعقوبة، وهي ذاتها المواضيع التي بحث فيها فوكو. فشمل بحثه مظاهر الوعي والإرادة والذات والتاريخ كسيرورة، وهنا سيتساءل فوكو داخل هذا الحقل المعرفي الواسع: لماذا تظهر أنماط التفكير فجأة ويظهر موضوع جديد أو علم حديث ثم يختفي؟ لماذا ينتقل علم التنجيم من معرفة إلى أحد أشكال الخرافة، وهذا ما يدفع للتساؤل ما هو المعيار أو القانون الذي تخضع له هذه التنقلات المعرفية والتي تفهم مدلولاتها وتصنف في كل مرة بكيفية مغايرة؟.

سيقترح فوكو الأركيولوجيا كمنهج لتفسير ظاهرة التحولات والإنتقالات التي تحدث في ميدان الفكر، وهذا المنهج الذي يوظفه فوكو يسعى إلى سبر أعماق المعرفة عبر تاريخ الفكر للكشف عن تلك الثوابت والأسس غير المنظورة والتي تعود إليها سلطة التحكم في إنتاج وتنظيم المعارف في كل فترة تاريخية، ففوكو مع الأركيولوجيا سيعمل على إعادة تركيب العمليات والسيرورة التي أدت إلى الإنتقال من شكل من أشكال المعرفة والثقافة إلى شكل آخر عبر وسائط معينة، فنجده يحفر في الخطاب المعرفي لفترة تاريخية معينة بحثا عما يسميه مجموعة القواعد التي يعتبرها كشرط إمكان، تجعل من هذه المعارف تنشأ وتظهر في تلك الفترة بالذات ثم تختفي بعد ذلك، فهي إذن بحث في ميدان صوري لا دخل للإنسان فيه. فليس هناك ما يمكن اكتشافه وليست هناك حقيقة كامنة قد تظهر يوما. ما قد نقوله اليوم سيعاد قوله غدا لكن بشكل مختلف يقول فوكو. اعتبر فوكو الخطاب مجموعة ممارسات تخضع لقواعد معينة. فالخطاب "ليس وعيا يسكن مشروعه في الشكل الخارجي للغة، ليس الخطاب لغة تضاف لها ذات تتكلمها، بل هو ممارسة لها أشكالها الخصوصية من الترابط والتتابع"[(3)]، فأركيولوجيته قد لا تبحث عن نشأة وتكون وتطور المعرفة، بقدر ما تسعى للبحث عن ذاك النظام القائم وراء ظهور ونشأة المعارف في عصر معين، وبالتالي يمكن القول أن فوكو هو أول من برهن على وجود ترابط ابستمولوجي عميق بين مختلف المعارف السائدة في فترة زمانية معينة أو عصر معين مثال عن ذلك الخطاب العيادي الطبي والسجين.

وها هنا بالذات ستطرح التساؤلات الإبستيمولوجية الكبرى: ما هي الشروط القبلية والمعايير المسبقة التي تكمن وراء ظهور المعارف وأشكالها؟ ما هي الأفكار والأحكام المسبقة التي ينتظم من خلالها كل عصر انطلاقا من الأشياء في إطار مشترك؟ ما المقصود بإستيمي العصر؟.

إن هذه التساؤلات هي التي ألهمت فوكو أطروحته الجديدة حول نشأة المعارف والعلوم، وهي تستند أساسا على فكرة التمييز فيما بين خطابات المعارف والعلوم في فترة تاريخية محددة بين مستويين الأول سطحي ظاهري والآخر عميق مستتر، وفوكو من خلال هذا التمييز يساير التقليد البنيوي الذي يسلم بوجود بنية سطحية وبنية عميقة.

وهذه البنية العميقة يجسدها فوكو في مفهوم الإبستيمي Epistémé الذي يعني البنية الداخلية غير المرئية للمعارف السائدة في عصر ما. فهو يعرفه في أركيولوجيا المعرفة بقوله "في الواقع، نفهم بالإبستيمية مجمل العلاقات التي قد تربط، في وقت معين، بين الممارسات الخطابية التي تفسح مجالا لأشكال ابستمولوجية ولعلوم، وعند الإقتضاء لأنظمة معقدة.. الإبستميية ليست نوعا من المعرفة أو نمطا من العقلانية يعبر باجتيازه العلوم الأكثر تنوعا عن الوحدة المطلقة لموضوع ما، لعقل ما أو لعصر ما، إنها مجمل العلاقات التي يمكن اكتشافها بين العلوم في وقت معين عندما نحللها على مستوى الإنتظامات الخطابية"(4)، هذا المفهوم تضمن نقدا لاذعا لتاريخ الأفكار الذي يعتمد أساسا مفهومي التقدم والغائية Téléologie في نظرته لتطور الأفكار والعلوم. فقد كان باشلار قد سبق بتقديمه لمفهوم القطيعة الإبيستميولوجية في مجال تاريخ العلوم وسبق لريمون أرون أن طرح أيضا أهمية مفهوم القطيعة في فلسفة التاريخ وسبق لأستاذ فوكو نفسه جورج كانغلام أن طرح وحدة الذات العارفة للشك وإعادة النظر. كان هناك إذن سياق فلسفي معرفي عام شجع فيلسوف اللامألوف على الدفع بتجربة الاختراق إلى أبعد الحدود معتمدا في ذلك على نتشه خصوصا الذي كرس قطيعة مع التقليد الفلسفي برمته تفتح أفاقا جديدة تقوم على أنقاض التراث الميتافزيقي الذي عمل نتشه على تقويضه بمطرقته. وهذا ما يؤكده هابرماس حينما يؤكد أنه "بطريقة لامعة، نقد فوكو المأزق الذي تغرق فيه فلسفة الذات، وأظهر بشكل جيد كيف أن محاولة تملص العلوم الإنسانية من النتائج التناقضية التي تقود إليها ذات تحاول معرفة ذاتها لكنها لا تزداد إلا غرقا في علموية Scientisme ذاتية التشيؤ"(5) .

وبهذا أقصى فوكو من خلال الأركيولوجيا سؤال العلمية الذي أرادت أن تحقق تاريخا للمعارف يغيب فيه كل أثر لتاريخ تقدم العلم. مبرزا دور السلطة في خلق المعرفة، مخرجا وفق ذات المنهج مفهوم السلطة من حقله الضيق في السياسة إلى مجال أكثر اتساعا، فاعتبر فوكو السلطة علاقة قوى، إذ تظهر ممارسة السلطة كعلاقة بين قوتين، هي علاقة سجال وصراع وتدافع وتأثير وتأثر، فالسلطة هي كل شبكة علاقات القوى المزروعة في كل جسد المجتمع والمنبثقة في كل مؤسساته وخلاياه، إن السلطة تنتج نوعا من المعرفة والمعرفة تولد نوعا من السلطة. فهناك إذن ديالكتيك بين المعرفة والسلطة، كالطب النفسي، القانون، السجون، وكل مؤسسات الإقصاء والاستعباد. وإجمالا

"يجب التسليم أن هذه السلطة تمارس بدلا من أن تمتلك، وأنها ليست الإمتياز المكتسب أو الدائم للطبقة المهيمنة، بل هي الأثر العام لمواقعها الإستراتيجية"[6].

هذه الإبستيميات تظهر كذلك في كتابات فوكو نفسه. فمفهوم الأركيولوجيا الذي وظفه في الكلمات والأشياء وفي المعرفة والسلطة، سيمنح المجال لمفهوم الجينيالوجيا في المراقبة والعقاب.

ها هنا يحاول فوكو محاكاة نتشه الجينيالوجي معلنا ذات التمرد الذي أعلنه نتشه ضد الذاكرة الأفلاطونية وداعيا إلى ضرورة "التمكن من التاريخ لاستعماله استعمالا جينيالوجيا، أي استعمالا ضد أفلاطوني، آنئذ سيتحرر التاريخ من التاريخ الذي يتعالى على التاريخ"[7]. لذا سنتطرق باختصار لهذا المنهج الجينيالوجي لنتشه ونتابع تأثيره على فلسفة فوكو حول انحلال الذات.

البحث الجينيالوجي :

مغامرة جينيالوجيا فوكو تروي قصة تفوق العقل على (آخر العقل، الجنون، الهامشي، والبدن، الآخر، والكلي على الجزئي)، ومحاولته إبدال العلوم الإنسانية بعلم النسب، "فما يقوم به فوكو هو تفجير للوحدات ودحض لفكرة النواة المركزية التي عنها تصدر الإشعاعات"[8].

إن المنهج الجينيالوجي كبحث عن الأصل والنسب يقوم عبر الهدم للموحد وتقويض الهوية (تفجير منطق الهوية)، فالميتافزيقا تتوخى إثبات الوحدات وإقامة الهويات والوقوف عند الماهيات، فترمي الجينالوجيا إلى إظهار الإنفصالات التي تخترقنا "ذلك أن الجينيالوجي ما أن يسمع الحديث عن المعنى والفضيلة والخير، حتى يأخذ في البحث عن إستراتيجيات الهيمنة، إنه لا يرى في ذلك إلا لعبة إرادات السلطة"[9]، وكان لا بد لنيتشه من أن يعود إلى الأصول، إلى لحظة ميلاد المعقولية الكلاسيكية الغربية. لكن لماذا هذه العودة إلى اليونان؟

المطلوب هو ضرورة تحطيم وتفكيك الأزواج الميتافزيقية : خير- شر، خطأ- صواب، يقين- زيف، فالعودة إلى البدء إلى سقراط، يظهر أن موقف المدرسة الأفلاطونية وسقراط قد غير مجرى الحلم اليوناني مما سبب اليوم وصول الفلسفة الأوربية إلى إنسداد وانغلاق (وضع مأزوم)، فهل كان هذا هو الحلم اليوناني؟ وهل هذا قدر الفلسفة؟ أن تصل بنا إلى فكرة مفارقة لواقعنا؟ أم هناك من اغتصب هذا الحلم اليوناني؟

فالعودة إلى البدء فعل لتبرير الحاضر الغربي، حاضر تحكمه نوع من المفارقة والتباين، التناقض بين الفكر والواقع (الفلسفة والحياة)، وبذلك أراد نتشه أن ينبه إلى المكيدة الميتافزيقية التي تفرض علينا العيش بحقائق وأن نتكلم اللغة ونستخدم المفاهيم، ونركن إلى التراث ونستشعر نوعا من الدوام والإستمرار ونطمئن إلى التشابه والإنسجام والنظام، لهذا تحاول الجينيالوجيا العودة إلى الوراء " محاولة استرجاع الاختفاء الذي كان وراء كل انكشاف والغياب الذي كان وراء كل ظهور"[10] (اللامفكر فيه).

سقراط حاول عقلنة الحياة وسينعته نيتشه بالفيلسوف الهارب وبصفة العياء، أما أفلاطون فبحث عن السكينة والتأويل الواحد، والحقيقة الواحدة وفهم واحد لعالم مثالي جميل، والمغرض " أن الرجل الحقيقي يطلب أمرين المخاطرة واللعب"[11] .

سيعود نتشه إلى هذا الإنحراف القرافلاطوني الذي له مفهوم معين للزمن أدركه من خلال نمط الحضور، أما القلب الأفلاطوني فيروم به نيتشه تقويض فلسفة الحضور، فما يميز الظهور هو الإختفاء ويخرج السؤال هل الفكر مع الحياة أم ضدها؟

إن ثنائية سقراط ترفض الحياة، الرغبة والنوازع، إنها نسيان للحياة نسيان للكينونة، إن اختيار سقراط هو تأويل وليس حقيقة، هو اختيار لمعنى واحد من معاني متعددة. لقد أسس سقراط – أفلاطون- أرسطو لأحادية البعد وترسيم الفكر الواحد المطلق وإهمال جانب النفي.

جانب النفي في الفكر الفلسفي هو الهامش الذي بحث فيه فوكو، فهو لم يبحث في القضايا والإشكالات الكبرى التي بحث فيها تاريخ الفلسفة، بل تحول الفكر الفلسفي معه كما أرسته الجينيالوجيا النتشوية إلى إستراتيجية تشخيص وتفكيك ونقد. فكما انتقد نتشه كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو، ها هو فوكو يقول "لقد مرت تلك الحقبة الكبرى من الفلسفة المعاصرة، حقبة سارتر وميرلوبونتي، حين كان على نص فلسفي أو نص نظري ما، أن يعطيك في النهاية، معنى الحياة والموت ومعنى الحياة الجنسية، ويقول لك هل الله موجود أم لا، وما تكون الحرية وما ينبغي عمله في الحياة السياسية، وكيف نتصرف مع الآخرين"(12)، إن الإشكالية الأساسية للفلسفة يصوغها فوكو في السؤال التالي "ما هو الشيء الخالد وسط هذا العالم الذي يتغير فيه كل شيء؟"(13).

هذا هو مشروع فوكو الفلسفي، مشروع هدم وإعادة بناء لكل ما هو ظاهر للعيان على أنه مطلق يجب التقيد به، لكن لابد من البحث عن المختفي والهامشي خلف هذه النصوص التي نظن أنها حاملة لمعاني الحقيقة وكل أشكال الفهم. وهذه هي الفكرة التي سعى فوكو لتقويضها، "فما يقوم به فوكو هو نفجير للوحدات ودحض لفكرة النواة المركزية التي عنها تصدر الإشعاعات"(14)، بشرط أن تتم متابعة البحث الدائم في هذا الهاجس الفلسفي من خلال العودة إلى التاريخ باعتباره حقلا معرفيا جديرا بالتفكير والتأمل، فالتاريخ وكما يرى فوكو قد ظهر قبل ظهور العلوم الإنسانية، فقد قام منذ أقدم عصور اليونان بعدد كبير من الأدوار في الثقافة الغربية، فكان بالنسبة إليه ذاكرة ونقلا للمثل والكلمة موصلا وعيا نقديا للحاضر لاستشراف مصير الإنسانية استباقا للأتي ووعدا بالعودة، وعليه فالتاريخ كان له الدور الهام والبارز في إثراء الفلسفة وتفعيل أدوارها الاجتماعية.

د. العربي ميلود جامعة مستغانم

الهوامش:

1. امانويل كانط، نحو السلام الدائم – محاولة فلسفية- ، ترجمة وتقديم نبيل الخوري، دار صادر بيروت، ط1، 1985، ص 99.
2. فريديريك نتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم ميشال فوكو، تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر لبنان، ط2005،3، ص 08.
3. ميشال فوكو، نظام الخطاب، تعريب أحمد السطاتي وبنعبد العالي، الدار البيضاء1985، ص07.
4. M. Foucault, l'Archéologie du savoir, Gallimard, paris, 1969, p250.
5. J.Habermas , le discours philosophie de la modernité, Gallimard. Paris, P348.

6. M. Foucault, l'Archéologie du savoir, Op. cité, p31.

7. فوكو، نتشه الجينيالوجيا والتاريخ، ترجمة أحمد السطائي/ بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، 1988، ص63.

8. عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 1994، ص66.

9. عبد السلام بن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، دار توبقال، الدار البيضاء، ط01، 1993، ص31.

10. المرجع نفسه، ص 38.

11. فريديريك نتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم بيروت، لبنان، ص92.

12. السيد ولد أباه، ميشال فوكو الحقيقة والتاريخ، ص82.

13. المرجع نفسه ص 82.

14. عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 1994، ص66.